مذكرات خاصة :

تجاريبى فى الحياة

للاستاذ الكبير اسعد بك لطفى حسن

— ١ —

الاستاذ الكبير أسعد بك لطفى حسن من خيرة رجالنا علما وعملا، وأنبلهم خلقا ونفسا، يمتاز بصراحته فى القول وحريته فى الرأى ، ولا أدل على ما نقول ، من هذه المذكرات الخاصة بحياته التى يقرر فيها ما يقرر فى صدق و خلاص ، ونحن نشارك الاستاذ أسعد بك حسن في أن الدكتور طه حسين قد فتح بكتابه «الايام» سبيل الادب الواقعى ، وأنه كشف فيه عن سير لم يشأ كتاب الشرق أن يذيعوا حياتهم على سياقه ونسقه .

وفى يقيننا أن الاستاذ لطفى بك قد تأثر بالايام وصاحبه أجزل تأثير . فهو يطلع علينا فى هذه المذكرات بألوان حياته وما فيها من تجاريب، وسيرى القراء فى هذه المذكرات — التى سنوالى نشرها — من روائع الانباء ما يعنيهم دون ريب...

المحرر

(الاستاذ اسعد بك لطفى حسن)

ثارت الحرب العالمية فأثارت معها : هواجع الأمم، و رواقد الشعوب، ونوم الدول ، وأهاجت النفوس ، وأشعلت الأفئدة ، وأيقظت القلوب ، وأنعشت الأرواح ، وكان للشرق أكبر نصيب فى اليقظة بعد رقدته ، والحركة بعد سكونه ، والصحو بعد نومه ، والعمل بعد خموده والجد بعد جموده . وما وضعت الحرب أوزارها حتى سكن القائمون بها ، وهجع المشعلون لنارها ، وعلى الضد قام الشرق ، و بدأت نهضته ، وعمل واستمرت حركته ، وتقدمت خطواته ، و كثرت آماله ، وانتشرت فى كل ناحية من نواحى الرجاء مجهوداته وأعماله ، ومن ثم وهو يقاتل اليأس و يعتنق الرجاء ، ومنذ عهد قريب بدأ يجنى ثمرات غرسه ، و يتمتع بلذيذ ما تطيب

إليه النفوس وتطمئن له الخواطر ، وكان إحياء العلوم وإنهاض الآداب من أقوى قواه وأعظم ما كان يعمل له ويرجوه ويتمناه ، فقد أطل على الأدب العربي والتفكير الشرقي قبس جديد من الثقافة التجريبية الناجعة ، والبحوث العلمية النافعة ، ذات الأثر الفعال في تربية أذواقنا العامة وأحاسيسنا الفردية ، وفي توجيه الحياة الدائمة الأثر إلى الناحية الناجعة المرجوة والمنتجة حقاً . ولا مراء في الاقرار بأن ظهور ذلك القبس كان بأشراق تلك المذكرات القيمة النفيسة التي طالع بها القراء صديقنا الأديب النابه الدكتور طه حسين عميد كلية الآداب بالجامعة المصرية ، عن تاريخ حياته ، وما جاء بها من حرية القول وصراحة الحقائق ونزاهة النشر ، ولعل القراء يذكرون أيضاً — ويذكرون بالخير الكثير والثناء العاطر — مقالات «الأيام» وهي تتم على أنا لسنا في حاجة الى تعريفنا بالدكتور العميد ، أو تمداحنا لمواهبه وكفاياته وقوة نبوغه .

ولا نبالغ في اعتبارنا هذا الاسلوب القيم والنوع الثمين القدر من الكتابة التهذيبية ، بأنه القبس المنير الوضاء ، والاتجاه الصحيح النافع للثقافة التجريبية الناجعة ، والمورد العذب لأرواء النفوس بالخلق الكريم ، وتغذيتها بالفضائل الواصلة إلى قرارة القلوب والافئدة ، ذلك لانه بمثابة خطة عملية للحياة الحقيقية ، ورسم واضح لصورة ما في تلك الحياة من مهامه وفيافي ، وأنجاد ووهاد ، وسهول وحزون ، وأضاليل وأباطيل ، وترهات وخزعبلات يتحذر من الوقوع فيها ، ويعمل على تفادي الشر منها ، ويكون المجهود النافع بمثابة منارة كشافة ترسل الضياء المنير ، والهدى الساطع لارتياد طرق الخير والهداية والارشاد ، حتى لا ترتطم الرذائل بالفضائل ، ولا تبتلع الأمواه قوى العاملين الصابرين ، وتفنى مجهود السالكين المجدين ، وما أكثر ما في هذه الحياة الدنيا من صعاب نكراء ، وعقبات كأداء ، ومصائب دهماء ، ودواهي برحاء .

ونتمسك بهذا النوع القيم ، ونعتبره قبساً واضح الانارة ، لأنه وصف دقيق للحياة الحقيقية بدررها وغررها ، وجواهرها وأصدافها ، وتباهي به ، كما اعتبر الفرنسيون اعترافات (روسو) وقدر الانجليز اعترافات T كل الأفيون (ديكنسي) ، وكما فاخر الايطاليون بمذكرات (بانيني) عن المسيح عليه السلام ، وكما يعترف العرب للكثير من علمائهم وأدبائهم بمجهوداتهم المنتشرة هنا وهناك في الأغاني والحاحظ وغيره من فذلكات قيمة وأقاصيص متينة شيقة .

ونعتبره قبساً خليقاً بالاحتذاء والاقتداء ، يرجى منه النفع كله ، والاهتداء به إلى تقويم المعوج من الأخلاق ، وإنماء المستقيم من العادات ، والهداية إلى الطريق السوي ... وبهذا نستميح «قراء المعرفة» الكرام أن ندلي بدورنا بدلائنا لنمتاح من هذا القليب الذي لا ينضب ، والمعين الذي لا يزال يدر بأخلاف النفع ومختلف الفوائد ، ونتقدم إليهم آمنين مطمئنين لعفوهم الكريم وفضلهم العميم ، لعلنا نصل بواسع حلمهم وغزير علمهم الى ما نعمل له ونصبوا اليه من مقاومة

ما اجتاح الهمة ونزل بالفضائل ، وتمكن من بث مايدعو الى: العزة، وإباء النفس، والشمم والكرم، والحلم، والجود، والبر، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، ومن ثم يسطع نور الثقافة وتضىء شمسها وتخترق أشعتها قلوب العاملين وأفئدة المجدين ، وتعود شمس العرفان الى مشرقها مهبط الوحي ومبعث الحكمة ونور اليقين .

فى هذه الحياة الدنيا التى بدؤها بلاء، ووسطها عناء، وآخرها فناء، وأولها حركة، ونهايتها سكون، فى جوها المملوء بالمفاجآت، المفعم بالمحزنات ، المضطرب بالآلام النفسانية ، المشبع بالغيوم الخلقية ، المملوء بالزفرات والحسرات ، فريق من الناس يلهو ويلعب ، ويمرح ويطرب، وآخر يتألم ويتوجع، ويشكو ويتضرع ، وغيره يرضى بما هو عليه ، ويسر بما هو سائر فيه ويقنع، أضداد ومناقضات ، تلك سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا .

فى هذه الحياة — وقد قضيت الخمسين من عمرى ، ومرت بى فى خلالها ما مر من أفراح وأتراح، وهموم ومتاعب، وتسهيلات ومصاعب، ونعم ومحن، وهناء وبلاء، ونعيم وشقاء ، وكان لى منها عظة واعتبار ، وتجاريب واختبار ، وآمال وآلام ، ورضى وتوجع، وشكر وتضرع ، ومواقف ومواهب — رأيت بعد بحث عميق، وتمحيص وتدقيق، أن كل انسان مسئول عن الدعوة للواجب، مكلف بالتذكير للخير وفعل المعروف ، مطالب بالعمل للاصلاح وخير المجموع ، لا فرق بين أمير وحقير ، وكبير وصغير، وواعظ اختص بالوعظ ، وكاتب انقطع للقلم والقرطاس، بل الكل مسئول عن تأدية واجبه نحو المجموع الانسانى قدر طاقته ، وفى دائرة علمه ومداركه وتجربته. وما أجمل أن يطبق العلم على العمل ... لهذا رأيت فى حدود تجربتى وخبرتى — التى قضيت فيها ذلك العمر المنصرم — أن لا أضيع مجهود تلك المرحلة، ولا أضن بسرد ماصادفنى واعترانى، لعل فيه نفعاً لغيرى، وتفاديا مما أصابنى، فلا أضن بسر ليس فى إذاعته ضرر ، ولا أبخل بأمر فيه عبر ومزدجر. فالصراحة مبدأى، والاخلاص للحق رائدى، والوفاء للواجب مقصدى ، وعظة الناس واعتبارهم وعبرتهم غايتى . وإنى لا أتهيب سرد وقائع خفى أمرها عن الناس، وفى ذكرها دفع للشر وعمل للخير ... كل هذا ليكون الواقع عند قول القائل « سل مجربا » .

نشأتى :

سبحان الله خالق كل شىء ، سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الارض، ومن أنفسهم، ومما لا يعلمون ، فقد أوجدنى من أبوين — رحمة الله عليهما — وقد فارقا هذا العالم الفانى وانا ابن ثلاث سنوات، وخلفانى يتيما أتجرع كأس اليتم المرير، وأشرب حنظله، وأتجرع مره وصابه، مع أن أبى — طيب الله ثراه — كان كما شهد له أهله ومعارفه — تقيا ورعا، ممن اتبع قول الله « وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم، فليتقوا الله وليقولوا قولا سديداً » فخلف

لنا ما كان كافياً لحفظ كيان: أولاده الستة، وابنتيه، وزوجته غيرامى، وجدتى لأبى، ولكن شاء القدر ان يتولى أمر هذه العائلة وصيان: أولهما عمى شقيق أبى، وثانيهما جد اخوتى لأمهم، وكان المجلس الحسبي سلطان الرقابة عليهما.

المجلس الحسبي:

كان المجلس الحسبي رقيباً على عمى الوصى، وكان يحاسبه فى كل سنة، ولا يزال ماثلا لناظرى وكان ينتقل عمى من محل إقامته بمدينة طنطا الى مقر رئيس المجلس بمدينة دمياط فى كل عام مرة وقد كنت أتذكر جيداً اهتمام عمى بهذه الرحلة، حيث أراه شديد الاهتمام بالانقطاع الى إعداد كشوف الحساب، والاستعداد بشتى الهدايا، فكان يحمل باليمين أوراقا وباليسار ارزاقا، حتى اذا ما وصلت الارزاق، اعتمدت الاوراق، وكان الحساب يسيراً وعاد عمى فرحاً مسروراً.

سبحان ربى! فقد انطبعت فى مخيلتى حياة الصغر، كأنما رسمت كل المرئيات التى مرت أمام ناظرى فى خلايا ذلك العقل الصغير الذى احتوى كل حادث مر عليه، أو كأنما كانت ثنايا ذلك المخ طيات كتاب حفظ كل صغيرة وكبيرة فى ادوار الحياة، حتى اذا رجعت اليه راجعت تلك المحفوظات فوجدتها كأنها بنت اليوم لا تحوير فيها ولا تغيير.

لهذا، أذكر أن عمى اختلف مرة مع كاتب تجارته — وكان ثم اتفاق بينهما من قبل — فاتخذ الكاتب الخصومة سبيلا للطعن، فأذاع بين الناس شيئا ضد مفردات الحساب، وما هى إلا عشية — استحضرت فيها بعض المطايب من الهدايا، وما أسرع من القطار الذى حملها وكتاب البريد — حتى وصل الرد بالاطمئنان وعدم الاهتمام... هذه واقعة تدفعنى للكلام عن المجالس الحسبية فى عهدها القديم وحالها الحديث.

من راجع أعمال هذه المجالس فى الماضى والحاضر، لا يشك مطلقاً بأنها من الأنظمة الواجب التدقيق فى مهمتها، ووضع خطط قيمة تدفع عنها ما أصابها من الشكوى والضجر، لأن المجالس الحسبية فى عهدها القديم نظام عتيق لم يكن للرقابة على الاوصياء ومحاسبتهم على تصرفاتهم، بل كان لاطلاق أيديهم فى مال القصر، والسعيد من تهيأت له أسباب الوصاية أو القوامة حيث لا رقيب ولا محاسب، وقد كان هم المجالس مراجعة الايرادات والمصروفات فقط، والتصديق على المبررات، ولم نسمع أن مجلساً حاسب وصيا على تعليم قاصر أو الاهتمام بحالته الأدبية، وكان الأوصياء يجتهدون فى إجابة طلبات القاصر وإرضاء المشرف، وقد ينتهى الأمر ببلوغ القاصر سن الرشد والاستيلاء على حقوقه بحالتها التى وصلت، دون أن يعرف كيف يتصرف فيها أو يدبر شؤونها، ولذلك تسوء العاقبة أو يندفع فى تيار الضلال ويلتف حوله قرناء السوء، فلا يلبث إلا قليلا حتى يصبح معدما، واذا رأيته فى ضلاله قيل: إنه وارث.

وقد تحسنت حال المجالس فى عهدها الجديد فى أمر واحد فقط، وهو: الدقة والشدة فى المحاسبة المادية، والاشراف الدائم على المادة، ولكن التصرفات التفصيلية من النواحى الادبية والخلقية، والعناية بتعليم القاصر وتثقيف عقله، فهذا أمر لا شأن لها به ولم يكن من عملها.

والنتيجة تكاد تكون أشد من نتيجة الأمس، اذ يبلغ القاصر رشده — وهو ثرى لم يكن يحلم بما يملك ولا يدرك غاية ما عنده — فيندفع في الحياة على غير هدى .

ومن المدهش أن للقصر أموالا ضخمة مودعة باسمهم في خزانات الحكومة دون فائدة أو استغلال، ودون البحث في استثمارها في عمل نافع ، وكان من السهل التدبر في ذلك ، وقد آن الأوان للاهتمام بهذه النقطة الدقيقة الهامة .

حياة الطفولة:

أنتقل بك أيها القارىء الكريم لأذكر إصابتي بمرض الحصبة ، وأنا في الرابعة من عمري ، وقد عهد الى عجوز تمرضني، فجعلتني تحت رحمة جهلها وتصرفاتها السيئة ، فكانت تتلاعب بحياتي وتجعلني ضحية تجاربها واختباراتها ، اذ حرمت على غسل عيني طوال مدة المرض، ولولا فضل من الله ورحمة لفقدت بصري — ولكني نشأت قصيره وضعيفه — ثم جاوزت كل حد في التعنت، فحرمتني رؤية الشمس، ووضعتني في كلة (ناموسية) حمراء ، وألبستني جلباباً احمر، ومنعت عني شرب الماء ، وأباحت شرب منقوع السكر الأحمر... كل هذا ليظهر الطفح، وأغلقت نوافذ الغرفة التي كنت أقيم بها، وسدت منافذها حتى لا يدخلها الهواء فأصاب بالسعال الحاد، وإن أنس لا أنسى يوم خلعت عني كل ملابسي، وغسلت جسدي بماء الملح وعصير البصل ، ثم تنازلت وسمحت لي بما شاءت من الطعام ... كل هذا وانا فريستها ، ولا من ينقذني من مخالبها ، لاني يتيم لم أسمع صوت الأم الحنون، ولا أجد عطف الأب الشفيق .

أنا يتيم أحس بآلام اليتامى، وأشعر أنني — ولما كنت عالة على عمي الذي عهد اليه أمر تربيتي — كنت في شقاء دائم: إن مرضت لا من يواسيني، وإن جعت لا أجد من أتجاسر عليه واطلب منه طعامي ، وان كانت لي حاجة الى أي شيء لا أجد من أفاتحه فيه ليسعفني به ... كنت انظر حسرة الى ما أحتاج اليه ، ويرتد بصري وهو حسير بألم لوعة الحرمان من الأم والأب، إذ هما حقا قبلة آمال الولد وكعبة رجائه .

عهد إلى عمي إدارة شئوني فنقلني وأخي الأكبر قليلا مني إلى داره، وكان مقيما بمدينة طنطا، وقد صاهر أحد أهلها، وإن كان موسراً إلا أنه كان قروي الحياة صميمها، يسره أن يجد مواشيه في صحن داره، لا يعبأ بما يتصاعد من روائح ، ولا يهتم بغير وفرة ألبانها وكثرة زبدها وسمنها ، ومن الأسف أن عمي كان راضياً بهذه الحياة ، سعيداً بالتمتع بزوجته التي هي غاية قصده ومناه ، فعهد اليها أمرنا والعناية بنا ، وعلمت هي وأهل الدار أننا ولدا أخيه اليتيمان قد فقدنا الأب والأم ، وأننا تحت رحمتهم وفي كنفهم .

بدأت حياتنا الجديدة بالاندماج في هذه العائلة، وكانت فوارق كبيرة بين المعيشتين: الحالية والسابقة ، ولكن هكذا أراد الله، وكان ولي أمرنا لا يهمه الا أن يسمع عنا أننا أكلنا وشربنا، إلا أنه من الجحود أن أنسى ما كان له من حسنات في هذا السبيل ، فأسأل الله له الرحمة كما أني أذكر ضدها وأغتفرها له ؟

— يتلى — أسعد لطفي حسن